ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

Hidha in Pre Islamic Poetry

Assistant professor dr. sami jasim mohammad

Colleg of Education for Humanities Kirkuk University

* *Corresponding author: E-mail* :
Dr.sam1999@Ukirkuk .edu.iq
07708940173

***Keywords*:**
Hidha
Poetry
Pre Islamic
Thaa'en

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 12 Feb. 2023
Accepted 10 Apr 2023
Available online 21 July 2023
E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©2023 COLLEGE OF Education for Human Sciences, TIKRIT UNIVERSITY. THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

This paper examines the topic of camel travel in pre-Islamic poetry, which was one of the sources of melodies at the time and can be considered a fundamental element in the construction of old Arabic poetry. It is an effort to ensure that this type of primordial chanting while traveling remains closely tied to its origins. The paper adopted poetic samples and demonstrated the connection between women and this form of voyage, whether undertaken alone or in groups. This study also revealed the methods employed in this type of journey and elucidated the position of poets from these journeys in terms of the metaphorical meanings of this journey, which served to convey common concerns. This paper considers these types of compositions as one of the poet's connections to nature at the time. This substantiates the actuality of Pre-Islamic poetry and the relationship between the poet and his environment, which is contingent on travel as destiny.

© 2023 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.30.7.1.2023.10

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

الحداء في الشعر الجاهلي

أ . م.د. سامي جاسم محمد/جامعة كركوك/كلية التربية للعلوم الانسانية

الخلاصة:

يتناول هذا البحث موضوع الحداء في شعر ما قبل الاسلام بوصفه – أي الحداء – رافدا من روافد الرحلة في ذلك الزمن التي تعد بدورها عنصرا أساسيا من عناصر بناء القصيدة العربية القديمة , وهي محاولة لتأكيد ارتباط هذا الضرب من الغناء البدائي بالرحلة ارتباط الفرع بالأصل والجزء بالكل . وقد وقف البحث – بحسب النماذج الشعرية – على ارتباط الحداء برحلة المرأة سواء رحلتها منفردة , أو رحلتها مع الظعائن

, كما وقف البحث أيضا على الكيفيات التي كان الحداة يتعاملون بها مع الظعائن , كما رصد البحث موقف الشعراء من الحداة , فضلا عن خروج الحداء عن معناه الواقعي إلى معان مجازية ساهمت في فتح الباب امام الشعراء للتعبير عن قضايا مصيرية واجتماعية متعددة لينتهي البحث إلى عد هذا النوع من الغناء البدائي صورة من صور ارتباط الشاعر في ذلك الزمن بالطبيعة مما يعزز واقعية القصيدة الجاهلية ويؤكد حجم الارتباط بين الشاعر وبيئته التي يعد الرحيل عصب الحياة فيها .

الكلمات المفتاحية : الحداء , الشعر , الجاهلي , الظعائن

مدخل :

تعد رحلة الظعائن محورا اساسيا في بنية القصيدة العربية قبل الاسلام وهذه الرحلة تفضي بالشاعر الى الدخول في تفاصيل مصاحبة للرحلة لا تكاد تنفك عنها أهمها المرأة التي هي محور الحديث والقصيدة ثم يتفرع الكلام الى وصف الظعائن ووصف الابل التي تحمل النساء ووصف الحداة الذين يحدون الابل لتصل الى وجهتها بعد رحلة شاقة تغيب تفاصيلها عند بعض الشعراء وتظهر عند الآخرين , ولذلك كان حديث الظعن وما يتفرع عنه من ذكر الحداة هو اطلالة الشاعر على ماضيه الذي يختزن فيض الذكريات فيصور به جانبا من تجاربه الذاتية مع المرأة وينفتح عبره على تفريغ شيء من همومه فيغدوا الظعن وما يترافق معه ميدانا لحالات نفسية متعددة تتراوح بين تهييج الذكرى , واثارة الشوق , وبعث الحنين . (١) وهكذا يبدو ارتباط الحداء بكثير من اشعار الظعن مظهرا لواقعية القصيدة الجاهلية التي ظلت وفية للبيئة العربية ومعبرة عن حركة الانسان العربي فيها في حله وترحاله وتجسيدا لطبيعة الحياة في الجزيرة العربية التي يشكل الرحيل عصب الحياة فيها وهو تعبير عن نمط معيشي معين املته طبيعة الحياة التي كان من افرازاتها الظعينة والحادي بما يعزز الانطباع في ان (الارض – بخصبها وجفافها – هي السر الكبير في حياة القبيلة العربية في العصر الجاهلي , وهو سر معقد يتبدى بأشكال مختلفة وصور متباينة ومتباعدة)) (٢) وموضوع الحداء من المواضيع التي لم يتطرق اليها الدارسون في دراسات محكمة رصينة يمكن أن تكون مادة علمية ينتفع بها الدارس ويؤسس عليها احكامه الموضوعية والفنية – وأنا هنا لست بصدد اضفاء طابع الرصانة على بحثي هذا بقدر ما هي عملية توصيف لحالة واقعة – بل غالبا ما ترد الاشارة اليه او الحديث عنه في بعض صفحات الانترنت , والدراسات التي من هذا النوع غالبا ما تفتقر الى الطابع العلمي الاكاديمي في الاحالة الى المصادر في الآراء التي يتبناها الدارس , فضلا عن كونها دراسات أقرب الى الاستهلاك التجاري منها الى العلم .

ومن خلال متابعتي لمدة ليست قليلة من الزمن لم أجد دراسة علمية واحدة تناولت هذا الموضوع , بل كل ما عثرت عليه هو شتات أو فقرات قصيرة لا تكاد تسعف الدارس وتمهد الطريق أمامه , وهذه الندرة في تناول هذا الموضوع جعلتني اتبنى وبقوة ما ذهب اليه الدكتور وهب رومية حين اشار اشارة عابرة الى الحداة عندما قال (ان الحداة – كما أراهم على ما بيننا من زمن وأرض , وكما أصورهم في رحلة فرح أو موكب حزن – ميدان شعري فسيح جازه شعرنا العربي القديم بزاد يسير – يسير جدا – من اليقظة الشعرية كأنما استهوت الشعراء المعالم الشاخصة في درب الفراق والسفر فشغلوا بها عن الينابيع الصغيرة الدافقة وضاعت منهم كلمة السر أمام هذا الكنز الجميل) . (٣) .

.....

١- ينظر : الفضاء الشعري للقصيدة الجاهلية حيوية التطور وألق التجديد , د. فاضل بنيان : ٨٩

٢- الرحلة في القصيدة الجاهلية , د. وهب رومية : ١٩

٣- م . ن : ٣٠

وقبل الخوض في تفاصيل الدراسة نقف عند الأصل اللغوي لمفردة (حدا) , وعند تتبع هذه المفردة نجد ابن منظور يضعها في معنى كل ما له علاقة بالسوق والاتباع اذ يقول ((حدا : حدا الابل وحدا بها يحدو حدوا وحداءً زجرها خلفها وساقها , وتحادت هي : حدا بعضها بعضا , قال ساعدة بن جؤية :

أرقت له اذا ما عروضه تحادت وهاجتها بروق تطيرها

ورجل حادٍ وحدّاء , قال :

وكان حدّاءً قراقريا

الجوهري : الحدو : سوق الابل والغناء لها , ويقال للشمال حدواء لأنها تحدو السحاب , أي : تسوقه , قال العجاج :

حدواءُ جاءتْ من جبالِ الطورِ تُزجي أراعيلَ الجهامِ الخور

وربما قيل للحمار اذا قدم أتنه حادٍ, وحدا العير أتنه أي: تبعها , قال ذو الرمة :

كأنّه حين خلفهن به حادي ثلاث من الحقب السماحيج

التهذيب : يقال للبعير حادي ثلاث وحادي ثمان اذا قدم أمامه عدة من أتنه , وحدا الريشُ السهمَ : تبعه , والحوادي : الارجل لأنها تتلو الأيدي , قال :

طوال الايادي والحوادي كأنها سماحيج قُبٍ طار عنها نسالها

ولا أفعله ما حدا الليلُ النهار اي : تبعه , التهذيب : الهوادي أول كل شئ والحوادي أواخر كل شئ)) (١)

هكذا يتبين أن اصل الحداء هو سوق الابل والمشي خلفها فاذا ترافق ذلك مع الغناء سمي من يفعل ذلك حاديا , فكان الحداء أو الحدو – كما قال الجوهري – سوق الابل والغناء لها .

أما مبدأ ذلك وأصله فان المصادر تكاد تتفق على أن مضر بن نزار كان طرفا في اكتشاف الحداء اذ يذكر ابن رشيق أن ((أول من اخذ في ترجيعه الحداء مضر بن نزار , فانه سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه , وكان احسن خلق الله جرما وصوتا , فأصغت الابل اليه وجدت في المسير فجعلت العرب مثالا لقوله هايدا هايدا يحدون به الابل , حكى ذلك عبد الكريم في كتابه)) (٢) وذكر الالوسي – مع اختلاف طفيف في التفاصيل – ((أن الزبير بن بكار حكى في حديث رفعه : ان

.....

١– لسان العرب , حدا : ٦٢/٤– ٦٣

٢– العمدة : ٢٧٣/٢

الرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقوم من بني غفار حين سمع حاديهم بطريق مكة ليلا فمال اليهم : ان أباكم مضر خرج الى بعض رعائه فوجد ابله قد تفرقت فاخذ عصا فضرب بها غلامه فعدا الغلام في الوادي وهو يصيح : وايداه وايداه , فسمعت الابل ذلك فعطفت عليه , فقال مضر : لو اشتق مثل هذا انتفعت به الابل واجتمعت فاشتق الحداء)) (١).

وارتباط الحداء بالغناء قضية قديمة ليس هي محل خلاف , بل الخلاف في أسبقية أي منهما على الآخر , فالمسعودي ينقل عن ابن خرداذبه : أن الحداء عند العرب قبل الغناء , وانه – اي الحداء – أول السماع والترجيع عند العرب ثم اشتق الغناء من الحداء , ويخالف ابن رشيق هذا الرأي بعده (النصب) هو غناء الركبان والفتيان ومنه كان أصل الحداء كله . (٢).

فالحداء وفق ذلك – بصرف النظر عن خلاف الأسبقية – مرتبط بالغناء ذلك ان العرب ((قبل ان ترتقي عقولهم ومداركهم بمزاولة الفنون التي ترافق الحضارة , لم تكن موسيقاهم سوى الحداء يحدون به ابلهم , فكان

اول ترجيع في الجاهلية)) (٣). وهذ ما يقرره ابن خلدون في قوله ((ثم تغنى الحداة منهم في حداء ابلهم , والفتيان في فضاء خلواتهم , فرجعوا الاصوات وترنموا , وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناءً)) (٤).

وهكذا بإمكاننا ان نمضي مع العقاد في قوله ((فلا نزاع في الصلة الوثيقة بين الحداء ووزن الشعر العربي , فان لم يكن كل ما نظمه العرب حداءً يتغنى به الحداة فعلا , فهو وزن لا يخالفه ولا ينفصل عن نغماته واعاريضه , والمرجح الى جانب هذا أن حداء الابل كان له عمله المحسوس في التزام القافية سواءً بدت القافية في سجع الكهان كما يرى الكثيرون , أو كان ابتداؤها في غناء الحداة)) (٥). فالحداء عمل او مناسبة تستوحي الغناء وتقود اليه سواء في الحنين الى الديار التي فارقها الركب , أو في الامل بالمنتجع الذي يقصده , فليس للتغني بالشعر في حياة البادية اقرب مجالا من الحداء .(٦). وليس من منهج البحث هنا الدخول في تفاصيل العلاقة بين الغناء والحداء , بل ما يعول عليه البحث هو حضور الحداء في ثنايا القصيدة في عصر ما قبل الاسلام عبر اشارة الشعراء اليه سواء الى فعل الحداء ذاته ام الى من يقوم به وهم الحداة .

والحديث عن الحداء في شعر ما قبل الاسلام في جزء كبير من تفاصيله هو حكاية رحيل , حكاية رحيل المرأة , حكاية رحيل الظعائن , حكاية رحيل الخليط , فالحديث عنه او الاشارة اليه هو جزء من هندسة الرحلة وتفاصيلها ابتداءً من وصف حركة الرحلة مرورا بحث الحداة للراحلين او لمطاياهم وانتهاءً بغياب

.....

١- بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب , الآلوسي : ٣٧٠/١
٢- ينظر : القيان والغناء في العصر الجاهلي , د. ناصر الدين الأسد : ٩٥-٩٦
٣- الأصول الفنية في الشعر الجاهلي , د. سعد شلبي : ١١٠
٤- المقدمة , ابن خلدون : ١٧٣/٢
٥- الثقافة العربية , العقاد : ٦٥
٦- م . ن

الظاعنين او الراحلين عن عيني الشاعر في غياهب الصحراء او غياهب المجهول ((فلقد كانت رحلة الظعائن تقليدا شعريا أمدهم بثروة عريضة من معاني الفرقة والبعد , ورحلة الظعائن في الشعر الجاهلي نجدها منتشرة كانتشار الظعائن نفسها في صحراء شبه الجزيرة العربية)) (١) فكان الحديث عن الحداة او الاشارة اليهم من ينابيع الرحلة الصغيرة التي جازها الشعراء بزاد يسير من اليقظة الشعرية في زحمة حديثهم عن الاطلال او الظعائن أو الاسفار (٢) .

ومن خلال استقصاء نماذج كثيرة من شعر ما قبل الاسلام تبين ارتباط ذكر الحداة بذكر الرحلة سواءً رحلة المرأة منفردة (أعني افرادها بالحديث) , او رحلة الظعائن , او رحلة الخليط , والشعراء في هذه النماذج يصورون مظاهر التحمل والارتحال وحركة الظعائن التي يحدوها الحداة ثم يتبعون ذلك ببث أشواقهم في أثر الراحلين مغالبين اشواقهم تارة , وتاركين انفسهم على سجيتها لتذرف الدموع الغزيرة في اثر ظاعنة مفارقة او خليط مزايل تارة اخرى , وفي كلتا الحالتين لا يعدم الدارس خيطا من الحزن الشفيف ورنة من الأسى العميق.

فقانون الارتحال سيف مسلط على سويد بن ابي كاهل حين بكر الحادي يحدو رحل صاحبته مخلفا الشاعر رهينا للقطين الراحل , قال (٣) :

بكرتْ مزمعةً نيّتها وحدا الحادي بها ثمَّ اندفعْ

وكريمٌ عندها مكتبلٌ غَلِقٌ أثرِ القطينِ المتّبعْ

على أن بكور هذه المرأة بالرحيل واندفاعها في مجاهل الصحراء يكون بعد أن يحدو الحادي الذي يبدو أنه بفعله هذا يهئ المطايا للرحيل ووفق ذلك يكون الحدا هو العتبة الاولى للرحيل .

ويسائل عبيد بن الابرص طيف ام عمرو – الذي التقاه على غير ميعاد – كيف اهتدى لمكان الركب الذين

.....

١- الرحلة في القصيدة الجاهلية : ٢٠-٢١
٢- ينظر : م . ن : ٣٠
٣- ديوانه : ٢٩(مكتبل) موثق (القطين) الأهل والحشم

طال بهم السير في مفاوز تتراكم فيها الرمال ويتجشم السرى فيها حادٍ يحث النياق السريعة على السير فتستجيب له متدفقة في سعيها كأنها بقرة وحشية استبد بها الخوف , قال (١) :

طافَ الخيالُ علينا ليلةَ الوادي من أمِّ عمرو ولم يُلمم لميعادِ

انّى اهتديتَ لركبٍ طالَ سيرهُمُ في سبسبٍ بين دكداكٍ وأعقادِ

يُكلفون سراها كلَّ يعملةٍ مثلُ المهاةِ اذا ما احتثّها الحادي

وللحداة مع الابل ضروبا وأفانين من السير بحسب طبيعة الارض واستجابة الابل يذكرها ابن مقبل الذي لم يكن موقفه من الحاديين على ما يرام لأنهما تيمما ب(ام حاجز) بلدا اخر فكان ذلك منهم جورا وشططا , قال (٢) :

أأليومَ بانَ الحيُّ أم واعدوا غدا وقد كانَ حادي البينِ بالبين أوعدا

تيممَ خبتاً حاديا أم حاجزٍ فشطا , وجارا عن هواكَ فأبعدا

اذا لبّثًا عقدَ القبالِ لحاجةٍ بديمومةٍ غبراءَ خبّا وخوّدا

فثمة اكثر من حاد , الاول من أعلن قرار الرحيل , والأخران يتوليان حداء القافلة فيجنحان احيانا الى الخب والتخويد حسب متطلبات السفر ومجاهل الصحراء الواسعة , والخب والتخويد مظنة الابعاد بتلك المرأة عن الشاعر العاشق وهذا منتهى الجور والشطط الذي يمارسه الحداة في نظر ذلك العاشق .

.....

١- ديوانه : ٤٧ (سبسب) المفازة والقفر وما استوى من الأرض , (دكداك) السهولة , أو ما التبد من الرمل ولم يرتفع , (أعقاد) الأعقاد : جمع عقد بفتح العين وكسر القاف , وهو الرمل المتراكم , (يكلفون) يجشمون , (السرى) السير ليلا , (يعملة) الناقة القوية , (المهاة) البقرة

٢- ديوانه : ٤١-٤٢ (خبتا) بلد دون جزيرة العرب , (العقد) الربط , وعقد القبال : المدة الكافية لعقد زمام النعل وهو السير الذي يكون بين أصبعي الرجل , (الديمومة) الصحراء الواسعة التي يدوم السير فيها أياما , (خبا وخودا) من الخب والتخويد وهما ضربان من السير سريعان .

ويؤكد الشعراء كثيرا على الكيفيات التي يسوق بها الحادي الركائب فنقف على طائفة من أشكال السير : حث , قفّا , مال , أمّ, رفع , تكمش , زجل , الظّ, خب , خود , وعبر هذه الكيفيات يستطرد الشعراء في وصف تصرف الحداة بهذه الظعائن أو الركائب , فهم ينتحون بها اليمين تارة , ويتنكبون بها الشمال تارة اخرى , ويعلون أرضا ويهبطون أخرى , ثم يسترسلون في وصف واستقصاء الاماكن التي يؤمها الحداة , ويسترسلون أحيانا في وصف النساء على الهوادج , قال لبيد (١) :

وقد زودت منّا على النأيّ حاجةٌ وشوقاً لو انّ الشوقَ أصبحَ عادلا

كحاجةِ يومٍ قبلَ ذلك منهُمُ عشيّةَ ردّوا بالكلابِ الجمائلا

فُرُحنَ كأنّ الناديات من الصفا مذارعَها والكارعاتِ الحواملا

بذي شَطَبٍ أحداجُها اذ تحملوا وحثَّ الحداةُ الناعجاتِ الذواملا

فلبيد استبد به الشوق بعد ان جد الحداة السير بالناعجات الذوابل وهن يحملن النساء على الهوادج مشبها احداج تلك النسوة بالنخيل الباسقة التي زادها ارتواءا ونضارة ارتواؤها بالماء , وهذا التشبيه الذي عمد اليه الشاعر يؤكد أن القصيدة الجاهلية – في كثير من الاحيان – افراز للطبيعة , ولذلك كانت كثير من الانماط التصويرية في الشعر الجاهلي توحي بأن الانسان البدائي نتاج مباشر للظواهر الطبيعية وان الطبيعة مصدر الوعي وينبوعه . (٢) .

.....

١- شرح ديوانه : ٢٤١, (الكلاب) اسم موضع , وهو موضع ذكره لبيد مقترنا مع البدي في قوله (لاقى البدي الكلاب فاعتلجا) , (الجمائل) جمع جمل , (الصفا) نهر بالبحرين يتخلج من عين محمم ذكره لبيد في قوله (سحقا يمتعها الصفا وسريه) , وقوله (بين الصفا وخليج العين ...) (النادیات) يعني : النخيل (المذارع) النخل القريبة من البيوت , وفي المطبوعة بالمهملة , (الكارعات) اللواتي كرعن أي : ارتوين من الصفا وهن النخلات والتقدير : كأن مذارعها النادیات من الصفا , والكارعات الحوامل منها , وجاء خبر كأن في البيت التالي وهو (أحداجها) شبه أحداجها بالنخل من القلب . وفي معجم ياقوت الناجيات وشطب : جانب ثهلان الذي يلي نهب الشمال , أي : رحن فبدت أحداجهن بذي شطب كأنهن نخل يرتوي من الصفا . (الناعجات) المسرعات وكذلك الذوامل .

٢- ينظر : مقالات في الشعر الجاهلي , يوسف اليوسف : ٣٠٣

ويحفز الحداة اظعان ليلى في الصباح الباكر فاذا غيبها الحداة كانت كالنخيل الباسقة التي اثقلتها ثمارها وهذا المشهد يورث الحطيئة شوقا لا يملك ان يكتمه , قال (١) :

أشاقتكَ أظعانٌ لليلى يومَ ناظرةٍ بواكرْ

في الآلِ ترفعُها الحداةُ كأنّها سُحقٌ مواخرْ

كظباءِ وجرةَ ساقهنّ الى ظلالِ السدرِ ناجرْ

ان مشهد التحمل وما يرافق ذلك من حث الحداة الابل على السير من المشاهد المتكررة في النماذج التي وقفنا عليها وهو مشهد يسبقه أحيانا وصف الظعائن بانها كالنخيل الباسقة والاشجار المرتوية كما رأينا عند لبيد والحطيئة , او وصف نساء الظعن وما عليهن من الحلي والزينة , قال المرقش الاصغر(٢) :

تبصّر خليلي هل ترى من ظعائنٍ خرجنَ سراعاً واقتعدنَ المفائما

تحمّلنَ من جوّ الوديعةِ بعدما تعالى النهارُ واجتزعنَ الصرائما

تحلّينَ ياقوتاً وشذراً وصيغةً وجزعاً ظفارياً ودرّاً توائما

سلكنَ القرى والجزعَ تُحدى جمالُهم وورّكنَ قوّاً واجتزعنَ المخارما

فهذه الظعائن تجلس على المراكب المرفهة من الابل الضخام , تخرج – وقد تعالى النهار وذهب شطر غير قليل من الصباح – بكامل زينتها من الياقوت واللؤلؤ والدر والخرز اليماني النفيس يحدوها الحداة فتترك أرضا خلفها وتؤم أخرى في قصة الرحيل الدائمة , فكان مقطع الظعن بكل تفاصيله ((اطلالة الشاعر على ماض عزيز ارتبطت به ذكرياته , لذلك حرص الشعراء على كل ما من شأنه اغناء هذا النمط من الافتتاح بالصور الزاهية التي تكون مكمن الترويح النفسي الذي يزيح فيه الشاعر شيئا من همه بمتابعة تفاصيله بالتشخيص الحسي أو بالوصف المعنوي)) (٣) .

.....

١- ديوانه :٧٢-٧٣(الآل) مثل السراب , الا أن الآل لا يكون الا انتصاف النهار (ترفعها) أي يرفعونها في السير , وروي : يحفزها , أي : يسوقها , (سحق) نخل طوال , واحدتها سحوق , شبه الظعن بالنخل , (المواقر) الكثير الحمل , يقال : نخلة موقر وموقرة , (وجرة) بلد , (ناجر) هو أشد ما يكون الحر وهما شهرا ناجر , وذلك أن الابل تنجر فيهما بكثرة الشرب فلا تروى

٢- ديوان المرقشين : ٩٩(اقتعدن) ركبن , (المفائم) الابل العظام , أو المراكب الوافية الواسعة مفردها مفأم . (الوديعة) اسم مكان , (اجتزعن) قطعن , (الصرائم) قطع الرمل , (تحلين) لبسن الحلي , (الشذر) اللؤلؤ , أو قطع الذهب الصغيرة , (الجزع) الخرز اليماني وهو من أنفس الجواهر , (ظفار) بلد باليمن . (قو) موضع , (وركنه) خلفنه وعدلن عنه (المخارم) أطراف الطرق في الجبال .

٣- الفضاء الشعري للقصيدة الجاهلية : ٨٨

ولعل هذا الاستقصاء في تفاصيل الظعائن وما يترافق معها يشي بالأثر النفسي العميق الذي تخلفه هذه المشاهد في نفس الشاعر المنفعلة بالأمور انفعالا زائدا عن الاخرين .

وطالما كان اعلان الرحيل خبرا سيئا على الشاعر الذي يرقب تفاصيل الرحيل من احتمال الامتعة واعداد الركائب , ولذلك كان هذا الاعلان يروع قلب الشاعر المحب ومشهد الحداة وهم يحدون الجمال والظعائن يستثير في نفسه اللوعة فيصطنع التجلد ويغالب دمعته غير انها تسبقه حين يبصر الحداة كيف يحثون السير

بالبوازل المسنة عليها مراكب النساء اللواتي تبدلن بعد الظل الهجير وبعد الحجال الرحال كما يقول عمرو قميئة (١) :

وقد ريعَ قلبي إذ أعلنوا وقيل : أجدَّ الخليطُ احتمالا

وحثَّ بها الحاديانِ النجاءَ مع الصبحِ لمّا استثاروا الجمالا

بوازلَ تُحدى بأحداجها ويُحذينَ بعد نعالٍ نعالا

فلمّا نأوا سبقتْ عبرتي وأذرتْ لها بعد سجلٍ سجالا

تراها إذا احتثّها الحاديا نِ , بالخبتِ يرقُلنَ سيراً عجالا

لقد كان لتظافر زمن الظعن وهو الصباح مع جاذبية منظر الظعائن اثر مضاعف في استثارة مشاعر متداخلة من الشوق والحنين واللوعة عند الشاعر فطفق يذرف العبرات سجالا في أثر تلك الظعائن التي يسرع بها الحداة نحو المجهول .

.....

١- ديوانه :١٠٧- ١٠٨, (أجد) صار الى الجد والاجتهاد , (الخليط) الشريك الذي يخلط ماله بمال شريكه , والقوم يخالط بعضهم بعضا , والقوم الذين أمرهم واحد , والمشارك في حقوق الملك , وكانت العرب تجتمع في أيام الكلأ قبائل شتى في مكان واحد فتقع بينهم الالفة فاذا حان رجوعهم الى اوطانهم فافترقوا ساءهم ذلك . (حث) حثه : أعجله اعجالا متصلا , وحثه : حضه , (الحاديان) مثنى الحادي وهو الذي يسوق الابل , (النجاء) الاسراع في السير والسبق , (بوازل) جمع بازل يستوي فيه الذكر والأنثى , يقال للذكر : بازل وجمعه بزل والأنثى بازل وجمعها بوازل , يقال للبعير اذا استكمل سنته الثامنة ودخل في التاسعة : بزل نابه أي : شق وطلع , (الاحداج والحدوج) مراكب النساء كالهودج والمحفة واحدها حدج . (يحذين نعالا) يلبسن نعالا , يريد أنه كلما بليت أخفافها لبست غيرها , (السجل) الصب , يقال : سجلت الماء سجلا اذا صببته صبا متصلا , والسجل : الدلو الضخمة المملوءة ماء , وقيل هو ملؤها , وقيل اذا كان فيه ماء قل أو كثر , والجمع سجال وسجول , ولا يقال لها فارغة سجل ولكن يقال دلو , (الخبت) المتسع المطمئن من بطون الأرض , وقيل الخبت : سهل في الحرة , وقيل : هو الوادي العميق الوطيء ينبت ضروب العضاه , وقيل الخبت : الخفي المطمئن من الأرض فيه رمل , (يرقلن) يسرعن , والارقال : سرعة سير الابل , ويقال : هي مرقل ومرقال , وأرقل القوم الى الحرب ارقالا : أسرعوا .

ويعن للشاعر احيانا أن يجمل الاشارة الى حداء الركب دون الدخول في تفاصيل الحداء لاسيما ان كان المقصود بالوصف الخليط كاملا دون ان يعني الشاعر فردا معينا , او بعبارة أكثر دقة – دون ان تعنيه امرأة بعينها – , ولعل الصورة العامة للرحيل هي ما كانت شغل الشاعر وليس تفاصيله الدقيقة , وهو ما يظهر من قول زهير الذي وصف غشيان الحداة بركائب الخليط بغشيان مهرة الملاحين لجة البحر بالسفن , قال زهير بن ابي سلمى (١) :

بانَ الخليطُ ولم يأووا لمن تركوا وزودوكَ اشتياقا أيةً سلكوا

.....

ثمّ استمروا وقالوا إنّ مشربَكُمْ ماءٌ بشرقيّ سلمى : فيدَ أو رككُ

يغشى الحداةُ بهم وعثَ الكثيبِ كما يغشى السفائنَ موجَ اللجةِ العركُ

وفي كثير من النماذج التي ترد الاشارة الى الحداة فيها يكون هؤلاء – أي الحداة – طرفا في تصرم حبال الوصل بين الشاعر ومن يهوى , فهم من يعلنون الرحيل , وهم من يسوقون الظعائن ويمضون بها الى أماكن غريبة غالبا , ولذلك لا نعدم أن نجد في بعض النماذج ان مواقف الشعراء من الحداة تتسم بالتشنج كما يبدو ذلك في موقف عبيد بن الابرص في قوله (٢) :

الا تقفانِ اليومَ قبل تفرّقٍ ونأيٍ بعيدٍ واختلافٍ وأشغالِ

الى ظعنٍ يسلكنَ بين تبالةٍ وبين أعالي الخلِّ لاحقة التالي

فلمّا رأيتُ الحادِيينِ تكمّشا ندمتُ على أن يذهبا ناعمي بالِ

.....

١– شرح ديوانه :٧٨, (الخليط) الأصحاب المخالطون في الدار , ويكون واحدا وجمعا , وهو ههنا جمع , فلذلك قال (ولم يأووا) ومعناه : لم يرحموا ولم يرقّوا , يقال : أويت له , إذا رققت له ورحمته , وقوله (أيّة سلكوا) أي : أيّ وجهة سلكوا , يقول : بانوا عنك بمن تحب ولم يرقوا لك , وجعلوا زادك الاشتياق اليهم , قوله (ثم استمروا) أي : استقام أمرهم واتفق رأيهم فمروا , و(سلمى) أحد جبلي طيء وهما أجا وسلمى , (فيد و ركك) موضعان , وقال الأصمعي : سألت إعرابيا فقلت له : أتعرف ركّا ؟ قال : لا أعرفه ولكن ههنا ماء يقال له : ركٌ , فركك على هذا محرك العين ضرورة وهو جائز في الشعر . وقوله : (يغشى الحداة بهم وعث الكثيب) يصف أنهم اختصروا الطريق وركبوا وعث الرمل وهو : اللين

الذي تغرق فيه قوائم الماشية , و(اللجة) معظم الماء , و(العرك) جمع عركي وهو النوتي , شبه حمل الحداة الابل على صعب الرمل باقتحام النواتين لجة البحر بالسفن .

٢- ديوانه :١١٣, (تبالة) موضع ببلاد اليمن ,بينها وبين الطائف ستة أيام وبينها وبين بيشة يوم واحد (الخل) الطريق في الرمل , ويسمى به موضع باليمن , (تكمش) جد وأسرع , (أن يذهبا ناعمي بال) يريد : أن يذهبا بحبيبته وهما ناعما البال .

وقد يتطور الموقف فيصل الى العداء الصريح كما هو عند قيس بن الحدادية الذي دعا على الحادي بجدع الانف وما يشي به من الذلة والصغار لان هذا الحادي كان طرفا فاعلا في تغييب احباب الشاعر عنه حين فجعه بخبر الرحيل , قال (١):

فيا لك من حاد حبوت مقيدا وانمى على عرنين انفك جادع

اغيظا أرادت ان تخب جمالها لتفجع بالأظعان من انت فاجع

وقد يأتي ذكر الحادي استكمالا لمشهد موضوعي يحاول الشاعر أن يحشد له ما يستطيع من مقومات فنية لأجل توكيد الصورة الكلية , قال زهير (٢) :

كأن عينيّ في غربي مقتلةٍ من النواضحِ تسقي جنةً سحقا

تمطو الرشاءَ , فتجري في ثنايتها من المحالةِ ثُقبا رائداً قلقا

لها متاعٌ وأعوانٌ , غدونَ بهِ قتبٌ , وغربٌ , اذا ما أفرغَ انسحقا

وخلفها سائقٌ يحدو إذا خشيتْ منه اللحاقَ تمدُّ الصلبَ والعنقا

.....

١- عشرة شعراء مقلون , د. حاتم صالح الضامن , (عرنين الأنف) أول الأنف .

٢- شعر زهير بن أبي سلمى : ٦٦- ٦٧, ((في غربي مقتلة) يقول : كأن عيني من كثرة دموعها , في غربي ناقة مقتلة ينضح عليها , أي : يستقى , والمقتلة : التي ذللت بكثرة العمل , وإنما خصها لأنها ماهرة تخرج الدلو ملأى فتسيل من نواحيها والصعبة تنفر وتضطرب في سيرها فتهريق الدلو فلا يبقى منها الا صبابة , وواحد (النواضح) ناضحة وهو البعير يستقى عليه , و (الجنة) البستان , وأراد بها ههنا النخل , لأنه أحوج إلى كثرة الماء من الخضر وما أشبهها , و(السحق) جمع سحوق , وهي النخلة التي ذهب جريدها صعدا فطالت , ولم يقصد بالصعد إلى معنى وإنما ذكرها للقافية , ويحتمل أن يريد : جنة ذات سحق , أي : بعد , والمعنى أنها متباعدة الأقطار والنواحي فهي أحوج إلى الماء الكثير . (تمطو الرشاء) أي : تمد الحبل , (الثناية) الحبل الذي أوثق أحد طرفيه بقتبها والآخر في الدلو , (المحالة) البكرة ,

و(الرائد) الذي يجيء ويذهب , و(القلق) الذي لا يثبت , يقول : تمد هذه الناقة الحبل الذي يستقى به فتجري من البكرة ثقبا رائدا , وقوله (ثنايتها) أي : يخرق الثقب وهي في ثنايتها أي : وعليها ثنايتها , كما تقول : خرجت في ردائي إلى فلان , تريد : وعلي ردائي , أو معي ردائي . وقبل : الثناية ههنا عطف الناقة وانثناؤها , أي تجري إذا عطفت وانثنت ثقبا رائدا , وقوله (لها متاع) أي : لهذه الناقة التي يستقى عليها , وقول (قتب وغرب) تبيين للمتاع والقتب أداة السانية والغرب : الدلو العظيمة , وهو مذكر , والدلو مؤنثة , وقوله (سحقا) أي : مضى وبعد سيلانه وهو من قولهم : أسحقه الله , أي : أبعده , وقوله (غدون به) أراد جماعات الأعوان , ولو أمكنه أن يقول (غدوا) على لفظ الأعوان لكان أحسن . قوله (ما زلت أرمقهم) رجع إلى وصف الخليط الذي فارقوه , ومعنى أرمقهم : ألحظهم وأنظر اليهم حزنا لفراقهم , و(الركاب) الابل التي يرحل عليها والواحدة راحلة , و(راكس) اسم واد , و(الفلق والفالق) المطمئن من الأرض بين جبلين , وقوله (هبطت أيدي الركاب) أي : هبطت الركاب

فزهير يسترسل في وصف الدلاء التي شبه بها عينيه ثم في وصف الناقة التي تحمل هذه الدلاء وهي تسرع في مشيها وتراقب الحادي الذي يسير خلفها فاذا شعرت بدنوه منها سارعت في مد صلبها وعنقها .

وفي مشهد آخر يصف زهير الخليط الذي فارقه وكيف كان يرمقهم في صعودهم الروابي وهبوطهم الوديان ذاكرا أسماء الاماكن التي حل بها الخليط والحداة تسعى خلفهم جماعات , قال (١) :

ما زلتُ أرمقهم حتى إذا هبطتْ أيدي الركاب بهم من راكسٍ فلقا

دانيةً لشرورى أو قفا أدمٍ تسعى الحداةُ على آثارهم حُزقا

وفي كل ذلك يمكننا أن نميز بسهولة براعة زهير ومقدرته الفنية على جعل الصورة الكلية بما فيها من حياة وحيوية مفضية في عمومها الى صورة جزئية محكمة ومترابطة تنم عن ذكاء الشاعر وبراعته في التقاط ما يراه مناسبا))(٢)

ويكون الحداء باعثا على تذكر الصبا والشوق واللهفة عند عمرو بن كلثوم سيما اذا ترافق هذا الحداء مع وقت الأصيل الذي يستثير مكامن الحزن ويلهب المشاعر , قال (٣) :

تذكرتُ الصبا واشتقتُ لمّا رأيتُ حمولها أصُلاً حُدينا

.....

وأقحم الأيدي للوزن ولم يخصها دون الأرجل وسائر الأعضاء , ويحتمل أن يريد بالأيدي : ما تقدم من الابل فيجعلها لما تأخر منها كالأيدي , و(الدانية) القريبة , و(شروى وأدم) موضعان أو جبلان , و(الحداة) السائقون للابل , و(

الحزق) الجماعات واحدتها حزقة ويقال : حزيقة أيضا وجمعها حزائق واشتقاقها من حزقت الشئ إذا شددته وجمعته ورجل حزقة وهو القصير المجتمع , ونصب دانية على الحال من الأيدي أو من الركاب , وإنما جعل الحداة جماعات ليخبر بكثرة القوم وعجلتهم في المسير وذلك أشد عليه وأهيج لحزنه .

١- ديوانه : ٧٣, (راكس) واد (فلقا) الفلق : المكان المطمئن بين ربوتين , (دانية) أي قريبة , (شرورى) جبل مطل على تبوك في شرقيها , وفي كتاب الأصمعي : شرورى لبني سليم , (قفا أدم) اسم جبل , (الحزق) الجماعات .

٢- الفضاء الشعري للقصيدة الجاهلية : ٩٨

٣- ديوانه : ٧٠ , (حمولها) الحمول : الأثقال , والحمول الابل التي تحمل عليها الأثقال , (أصلا) الأصل جمع الأصيل .

وفي بعض النماذج لا تقتصر وظيفة الحادي على الحداء فقط , بل يتم ابراز الفضائل التي يتمتع بها الحادي وفي مقدمتها الجرأة والشجاعة فضلا عن الكرم , قال عبيد بن الابرص (١) :

يجتابُ مهمهةً يهماءَ صملقةً سكنُ الخلائقِ حاذي اللحمِ معتبطُ

مشمرٌ خلقٌ سربالهُ مشِقٌ قاذورةٌ قائلٌ مغذمرٌ قططُ

يكلّفُ الغولَ منها كلَّ ناجيةٍ بعد الهجيرِ بإرقالٍ ويلتبطُ

فظلتْ أتبعهم عيناً على طربٍ إنسانُها غرقٌ في مائها مَعَطُ

وكلّ مجتمعٍ لابدّ مفترقٌ وكلُّ ذي عُمرٍ يوماً ليعتبطُ

فهذا الحادي – كما صوره عبيد – هادئ رابط الجأش جرئ على السير في القفار الموحشة وهو الى جانب ذلك كريم ينحر كرائم الابل لتأدية الحقوق ولذلك فكلمته مسموعة ورأيه مطاع فضلا عن سماته الخلقية التي زانها طوله الممشوق وجسمه الرشيق وهو الى جانب ذلك حاذق لصنعته يعرف كيف ومتى يستزيد السير بالناقة النشيطة بعد الهجير وبالناقة السريعة التي تدك الارض بقوائمها الطويلة القوية . وعلى نحو ما استقصى المرقش الاصغر تفاصيل رحلة الحداة بالظعائن استقصى ابن مقبل رحلة ظعائن (كبشة) وهي آخذة بذنب الوادي متجاوزة الرمال المتحركة حتى اذا ارتفع بها السير الى مساقط المياه مال

.....

١- ديوانه : ٨٥-٨٦, (المهمهة) أو المهمه : المفازة البعيدة , (اليهماء) مفازة لا ماء فيها ولا يسمع فيها صوت ولا يهتدى لطرقها , (الصملقة) الصملقة والسملقة : الأرض المستوية الجرداء , (سكن الخلائق) شجاع هادئ النفس لا يروعه السير في القفار , (حاذي اللحم) ينحر الابل ويعطيها الناس , (معتبط ينحر الصحاح من الابل التي لا داء بها

, وهذه من صفات قائدهم في السفر , (مشق) لعله كلمة مختصرة من المشيق , الممشوق الطويل القليل اللحم , (قاذورة) الغيور من الرجال والذي يتقذر الأشياء فلا يأكلها , (مغذمر) الذي يتحمل على نفسه في حال ماله والذي يهب الحقوق لأهلها والذي يحكم على قومه ما شاء فلا يرد حكمه ولا يعصى , (قائل) يريد قوال بالحق , (قطط) قصير وذلك خلاف ما كان العرب يمدحونه من السادة .. (الغول) الزيادة في السير والنشاط فيه , (الناجية) الناقة السريعة , (الهجير) حر الظهيرة , (الارقال) الاسراع في السير , (تلتبط) تسرع وتضرب الأرض بقوائمها , (الطرب) خفة تعتري الانسان عند شدة الفرح أو الحزن والهم , (معط) أي ليس في عينيه أهداب وأصله : معط شفرها فحذف الشفر وأسند الصفة الى انسان العين , (يعتبط) يهلك ويموت .

حداة الظعن بها الى بساتين النخيل وكأنها– اي الظعائن – سفن رست على جانب البحر , قال (١):

حتى إذا هبطتْ مدافعَ راكسٍ ولها بصحراءِ الرقيّ توالي

مالَ الحداةُ بها لحائشِ قريةٍ وكأنّها سفنٌ بسيفِ أوالِ

وفي نماذج اخرى تبعد الظعائن عن الشاعر فيستعين بخليله لمعرفة مسلكهم ويبدو الحداة في عجلة من أمرهم فلا يلبثون أن يغيبوا عن عيني الشاعر في المجهول , قال ابن مقبل (٢) :

تأمّلْ خليليْ هل ترى من ظعائنٍ تحمّلنَ بالعلياءِ فوقَ أطانِ

فقال : أراها بين تبراكِ موهناً وطلحامِ إذ علْمُ البلادِ هدائي

وقد أفضلتْ عيني على عينهِ وقطّع إلحاقُ الحداةِ قراني

ولا نعدم نماذج يكون الحداة فيها من طبقة اجتماعية مترفة متنعمة تتخذ من المياسرة سبيلا الى العطاء ,وهم سادة أشراف يفيضون مما يكسبون على القاصدين ولقدور طعامهم جلبة وصوت قال ابن مقبل (٣)

يا بنتَ آل شهابٍ هل علمتِ إذا أمسى المراغثُ في أعناقها خضعُ

أنّي أُتممُ أيساري بذي أودٍ من فرع شيحاطَ صافٍ ليطهُ قرعُ

يحدو قنابلَهم شعثٌ مقادمهم بيضُ الوجوهِ , مغاليقُ الضحى خلعُ

.....

١- ديوانه :١٣١ , (متذنبات) من تذنب الوادي اذا اخذه من ذنبه أي أحد طرفيه , (الخل) الطريق النافذ بين الرمال المتحركة , (أورال) رملة دون مكة , (جلابيب) جمع جلباب وهو الثوب , (خدرت) اتخذ له خدرا , (الريط) جمع ريطة وهي الملاءة من نسيج واحد , وخدرت بالريط أي : جعلت الملاءة ستارا للهودج , (النواعج) النواعج من الابل : السريعة , (المدافع) جمع مدفع وهو مسيل الماء من مكان مرتفع باتجاه الرياض أو الوهاد (راكس) موضع في ديار بني سعد بن ثعلبة من بني أسد , (الرقي) اسم موضع , (التوالي) ما تأخر من القافلة , (حائش) بستان النخيل , (سيف أوال) سيف البحر : ساحله , أوال : قرية بالبحرين , وقيل جزيرة غنية باللؤلؤ .

٢- ديوانه : ١٦٧, (العلياء) اسم موضع , (أطان) موضع قرب العلياء , (تبراك) موضع في ديار بني فقعس , (موهنا) ليلا , أو بعد مضي قطعة من الليل , (طلحام) موضع , (علم البلاد) أي معرفة مواقع البلدان من الناحية الجغرافية ,(أفضلت) رأت بطريقة أفضل , (قران) صلة وعلاقة , أراد أن الحادي أسرع بالابل حتى غابت القافلة عن ناظريه .

٣- ديوانه :٩٤- ٩٥, (آل شهاب) لعلهم بنو شهاب من بني عدي من قبائل الرباب , (المراغث) النوق المرضعات (الخضع) الخضوع والذل بمعنى الضعف والهزال يكني بذلك عن زمن الشدة والقحط حين يقل الزاد وينقطع الكلأ ,(

الى الوفاء قادتهم قداحُهمُ فلا يزالُ لهم من لحمةٍ قرعُ

ولا تزال لهم قدرُ مغطغطةٌ كالرأْلِ تعجيلها الاعجازُ والقمعُ

فلا تقتصر وظيفة الحداة على سوق الركائب والحداء لها بل هم سادة أشراف يلعبون الميسر فاذا ربحوا آثروا الفقراء والمعدمين من كسبهم سيما في أوقات الشتاء والقحط والجدب حين تشتد الحاجة ويتطلع الناس الى الكرماء .

والحادي في نماذج اخرى رائد القوم الذي يسمعون له وينزلون عند حكمه فهو رائدهم في السفر ودليلهم في الفلوات , قال كعب بن زهير (١) :

يوماً يظلُّ به الحرباءُ مصطخماً كأنَّ ضاحيهُ بالنارِ مملولُ

كأنَّ أوبَ ذراعيها إذا عرِقتْ وقد تلفعَ بالقورِ العساقيلُ

وقالَ للقومِ حاديُهم – وقد جعلتْ ورقُ الجنادبِ يركضنَ الحصى – قيلوا

وللعير التي تحدى في مرأى ومسمع من الشعراء وكأنها نخل أثقلها حملها وقع خاص عليهم , اذ تبقى أبصارهم ترنو نحوها يذرفون الدموع الغزيرة حزنا على الفراق على حد تعبير الحطيئة في قوله (٢) :

أرى العيرَ تُحدى بين قوٍ وعالجٍ كما زالَ في الصبحِ الاشاءُ الحوامل

نظرتُ على فوتٍ ضحييّ وعبرتي لها من وكيفِ الرأسِ شنٌ وواشلُ

.....

الايسار) جمع يسر وهو لاعب الميسر , والتتميم في الميسر هو أن يفوز الرجل بقدحه فيأخذ نصيبه من الجزور ويعتزل اللعب فيفيض الباقون قداحهم على ما بقي من الجزور , واذا شاء ذلك الرجل الفائز أن يعود بقدحه سألهم في ذلك فان شاءوا أجابوه وخلطوا قدحه بقداحهم وأعيدت الافاضة من بدايتها , (بذي اود) أي بقدح ذي أود , والاود هو الاعوجاج (شيحاط) موضع بالطائف والغالب أنه من جبال السراة , وفرع شيحاط : أي أن القدح مأخوذ من شجرة من شيحاط صلبة العود (ليط) ليط العود : قشره ولحاؤه (قرع) أقرع مقشور .

١- ديوانه : ٣٤- ٣٥ (المصطخم) القائم من الحر , يقال : ظل مصطخما , أي منتصبا , ويروى مصطخدا , أي قد صخدته الشمس اذا اشتدت عليه (ضاحية) ما ظهر منه للشمس (مملول) هو موضع النار , ويقال : أكلت خبز مكة وهذا طعام مملول , وكأن المليلة في البدن من هذا , يقول : كأن الحرباء قد شوي بالنار من شدة حر الشمس وصهرها عليه (أوب) رجوع (تلفع) تلحف (القور) جمع قارة , والقارة : هي جبل يرتفع طولا ولا يرتفع عرضا (العساقيل) قال الأصمعي : لا واحد للعساقيل , وقال غيره : واحد العساقيل : عسقل وهو السراب (الورق) الطوال , والأورق : الأخضر الى السواد , وقال غيره : ورق جماعة أورق وهو على لون الرماد , وهذا أشد ما يكون من الهاجرة (فيلا) يريد : من القائلة وهي منتصف النهار .

٢- ديوانه : ١٢١, (قن وضارج) لبني عبس , (الاشاء) النخل , الواحدة : اشاءة (وكيف) سيلان وجريان (شن وواشل) شن الماء : صبه , والواشل : الذي يسيل بعضه ويقطر .

وتشبيه الظعن – وهي تحدى – بالنخيل ورد ايضا عند المسيب بن علس الذي رأى الظعائن والحداة يسوقونها ويغنون لها فتخيلها نخيلا باسقة , قال (١) :

بكرتْ لتُحزنَ عاشقاً طفلُ وتباعدت وتجذّمَ الوصلُ

أوَ كلمّا اختلفتْ نوى وتفرقوا لفؤادهِمن أجلهم تبلُ

وإذا تُكلّمنا ترى عجباً بَرَداً ترقرقَ فوقهُ صحلُ

ولقد أرى ظعناً أُخيّلها – تحدى – كأنّ زهاءها نخلُ

ونظرا لمصاحبة الحداة للابل وقربهم منهن وما يترافق مع سير الحداة خلف الظعائن فقد استثمر الشعراء هذه الخاصية في التعبير عن معان أخرى , فالموت يتبع الأحياء ويسوقهم الى حتفهم كما يسوق الحداة ظعانهم الى مستقرهن , قال عبيد بن الأبرص (٢) :

يا عمرو ما راحَ من قومٍ ولا ابتكروا إلّا وللموتِ في آثارهم حادي

يا عمرو ما طلعتْ شمسٌ ولا غربتْ إلّا تُقرّبُ آجالُ لميعادِ

هل نحن إلّا كأرواحٍ تمرّ بها تحتَ الترابِ وأجسادٍ كأجسادِ

وفي اطار الفخر يفخر ابن مقبل بأن قومه يسوقون جلائل الامور بين ايديهم حين يتقاصر الاخرون عن ذلك كما يسوق الحداة الاظعان امامهم , قال (٣) :

وكم من كميٍّ قد شققنا قميصَهُ بأزرقَ عسالٍ إذا هزَّ عاملهْ

وإنّا لنحدو الأمرَ عند حدائهِ إذا عيَّ بالأمرِ الفظيعِ قوابلُهْ

.....

١- ديوانه : ١١٤ – ١١٥(الطفل) الرخص الناعم , والجمع طفال , (تجذم) انقطع , (النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد , وقيل : النوى التحول من مكان الآخر كما تنتوي الاعراب في باديتها , (تبل) التبل : أن يسقم الهوى الانسان , ويقال : قلب متبول اذا غلبه الحب وهيمه (الضحل) الماء الرقيق على وجه الأرض ليس له عمق , وقيل: هو الماء القليل يكون في الغدير ونحوه , (أخيلها) أظنها , وفي المثل : من يسمع يخل , أي يظن (زهاء) زهاء الشئ : قدره .

٢- ديوانه : ٤٨

٣- ديوانه : ١٢٦, (الكمي) الفارس الذي اكتملت عدته من السلاح , (قميصه) أراد به الدرع , (الأزرق: الرمح الأزرق السنان , (العسال) الرمح الذي يهتز ويضطرب من ليونته , (عامله) عامل الرمح : صدره دون السنان , (عي بالأمر) عجز عن القيام بأعبائه , (قوابله) الذين يستقبلونه ويتصدون له .

وفي اطار الوصف يحدو ليل امرئ القيس النجوم التي بات الشاعر يرقبها ساهرا بعد ان اتخذ من ذراع ناقته وسادة , قال (١) :

وسادي ذراعٌ قد طوتها زوّرةٌ بدأياتِ صلبٍ جوزهنَّ شنونُ

إلى أن بدا والليلُ يحدو نجومَهُ من الصبحِ خدٌّ واضحٌ وجبينُ

وفي اطار الوصف أيضا يشبه بشر بن ابي خازم ناقته المجدة في سيرها بحمار الوحش الذي يسوق أمامه أتنه وهو يشتد في سعيه , قال (٢) :

عذافرةٌ يئطُ النسعُ فيها إذا ما خبَّ رقراقُ الرقافِ

مذكرةٌ كأنَّ الرحلَ منها على ذي عانةٍ وافي الصفافِ

الظَّ بهنّ يحدوهن حتى تبيّن حولهنَ من الوساقِ

ويقال لريح الشمال حدواء لأنها تحدو السحاب أي تسوقه , قال المسيب بن علس (٣) :

وإذا الشمالُ حدتْ قلائصَها رتكاً فليس لمالكٍ مثلُ

.....

١- ديوانه : ٢٨٦ , يعني ذراع ناقته , (والدأيات) فقر الصلب , (جوزهن) وسطهن , (شنون) ضامر مهزول , (الزورة) المهيأة للأسفار .

٢- ديوانه : ٢١٦(عذافرة) الناقة الشديدة الأمينة الوثيقة , (يئط) يصوت , والأطيط : صوت الرحل والابل من ثقل أحمالها وسرعة سيرها , (خب) جرى واضطرب , والخبب ضرب من العدو سريع يراوح فيه الفرس بين يديه ورجليه , (رقراق) ترقرق السراب , وكل شئ فيه بصيص وتلؤلؤ فهو رقراق (الرقاف) ما تحرك من السراب , والرقراق : الأرض السهلة المنبسطة المستوية اللينة التراب تحت صلابة , وقيل : هي الأرض اللينة من غير رمل , وقوله : اذا ما خب رقراق الرقاف , كناية عن شدة الحر , (مذكرة) ناقة مذكرة متشبهة بالجمل في الخلق والخلق , (العانة) القطيع من حمر الوحش , وقيل : هي الأتان , وذو عانة أي : حمار وحشي يسوق قطيعه , (الصفاق) الجلد الأسفل الذي دون الجلد الذي يسلخ , وقوله: وافي الصفاق , أراد أن ضلوعه طوال , (الظ) من الالظاظ وهو الالحاح , ولظ بالمكان وعليه : أقام به , (حولهن) الحول : جمع حائل , وهي الأتان التي حمل عليها فلم تلقح , وقيل : هي التي لم تحمل سنة أو سنتين أو سنوات . (الوساق) جمع واسق , وهي الأتان التي حملت واغلقت رحمها على الماء .

٣- ديوانه : ١١٨ , (الشمال) ريح تهب من قبل الشام عن يسار القبلة , ويقال للشمال حدواء لأنها تحدو السحاب أي تسوقه , (القلائص) جمع قلوص وهي الناقة الشابة , وقيل : لا تزال قلوصا حتى تصير بازلا , (رتكا) النوق الراتكة : التي تمشي وكأن برجليها قيدا وتضرب بيديها , وهي مشية فيها اهتزاز .

وفي كل ما سبق من نماذج نلحظ أن تناول الشعراء للحداء ارتبط تارة بفعل الحداء الذي هو السوق باختلاف درجاته : الحث, واللظ , التكمش .....الخ أو بالشخص الذي يحدو في الافراد (الحادي (والتثنية (الحاديان) والجمع (الحداة) . أما مد الصوت بايقاع معين والتغني بهذا الايقاع فقد ورد عند ابن مقبل في اطار تشبيهه أصوات القطا في القفر بصوت الحادي الذي يحدو ابله , قال (١):

في ظهرِ مرتٍ عساقيلُ السرابِ بهِ كأنَّ وغرَ قطاهُ وغرُ حادينا .

وفي تصويره لغناء الحداة وهم يحثون النياق على السير , قال (٢):

تخدي بهم رُجُفُ الالحيِّ مليثةٌ أظلالهنّ لأيديهنّ تنعيلُ .

وللحداةِ على آثارهم زجلٌ وللسرابِ على الحّزانِ تبغيلُ .

ثم انتقل المعنى من حداء الابل , اي سوقها والغناء لها الى التغني بالشعر , وهذ المعنى نجده عند الحطيئة في قوله (٣) :

فلم أشتم لكم نسباً ولكن حدوتُ بحيث يُستمعُ الحداءُ .

وعند ابي ذؤيب الهذلي في قوله (٤)

فأقسمتُ لا أنفكُ أحدو قصيدةً تكونُ وإياها بها مثلاً بعدي .

.....

١- ديوانه : ١٦٠, (مرت) المرت من الأرض : القفر الذي لا نبات فيه , (العساقيل) جمع عسقول وهو القطعة من الشئ , (وغر) صوت , شبه أصوات طيور القطا في ذلك القفر بصوت الحادي الذي يسوق الابل بالغناء .

٢- م . ن : ١٨٦, (تخدي) من الوخد , وهو ضرب سريع من سير الابل , (الألحي) جمع لحي , وهو عظم الحنك , ورجف الألحي : النوق التي ترتجف أحناكها من الجانبين لشدة السير , (مليثة) المليثة : النوق الشديدة , (أظلالهن لأيديهن تنعيل) أي أن مواقع ظل الأيدي صارت مكان النعال , كناية عن السير في منتصف النهار حيث يصير ظل كل شئ تحته , (الزجل) رفع الصوت بالغناء , (الحزان) جمع حزيز , وهو ما غلظ من الأرض وصعب , (التبغيل) الاضطراب في مشية الدابة يشبه مشية البغل .

٣- ديوانه : ٢٤

٤- ديوانه : ١١٨

وعند مزرد بن ضرار في اطار فخره بشعره الذي يغنى به الساري وتحدى به الرواحل , قال (١)

وقد علموا في سالفِ الدهرِ أنني معنٌ إذا جدّ الجراءُ ونابلُ

زعيمٌ لمن قاذفته بأوابدٍ يغني بها الساري وتُحدى الرواحلُ .

وهنا نلاحظ كما لاحظ مصطفى الجوزو اقتران الحداء بالهجاء مما قد يدل على النبرة الحماسية التي قد يحتملها هذا النوع من الغناء البدائي (٢) . ويدل ايضا على ارتياد الشعراء بالحداء افاقا جديدة من التعبير يتوازى مع تطور الحياة الاجتماعية وتطور سبل التعبير عنها .

.....

١- ديوانه : ٤٧, (معن) يعن في كل وجه , (الجراء) المجاراة , (نابل) حاذق , (أوابد) وحشيات .

٢- ينظر : نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية) , د . مصطفى الجوزو : ٦٣/١

الخاتمة

بعد هذه الإطلالة على موضوع الحداء في الشعر الجاهلي يمكننا أن نوجز ما توصلنا اليه بالآتي :

- كان الحداء جزءاً من هندسة الرحلة في القصيدة الجاهلية , وهي هندسة تبدأ بوصف مشاهد التحمل للارتحال ثم رصد حركة الظعائن وحث الحداة لها لتنتهي بغياب مكونات الرحلة (الظعائن والحداة) في جوف الصحراء .
- شكلت المرأة محورا اساسيا من محاور حديث الشعراء عن الحداء أو الحداة سواء أجرى ذكرها بطريقة مباشرة أو ضمنية عند ذكر الظعائن والخليط .
- في غالب النماذج التي وقف عليها البحث لمس الباحث تأكيد الشعراء على الكيفية التي يسوق بها الحداة الركائب عبر أشكال متنوعة من السير تخضع لطبيعة الارض التي خبرها الحداة جيدا ولإستجابة الابل للسير , وكل تلك الكيفيات من السير كانت مشاهد تستفز عاطفة وحنين الشاعر للظعائن التي ذهب بها الحداة .
- يمكن عدّ الحداء مظهرا لواقعية القصيدة العربية القديمة في ارتباطها بالبيئة وتعبيرها عن حاجات الانسان العربي في ذلك العصر وكيف أن الرحيل كان يمثل له حاجة تكاد تكون وجودية .
- لم يقتصر ورود الحداء في النماذج التي كانت قيد الدراسة على الاستعمال الواقعي للحداء بل اتسع للتعبير عن معان أخرى بعضها وجودية كالموت , وبعضها اجتماعية كالفخر , وبعضها جمالية كالوصف .
- كل النماذج التي ذكر فيها الحداء كانت تشير الى فعل الحداء وكيفياته أو إلى من يقوم بهذا الفعل وهم الحداة , أما الحداء المرتبط بمد الصوت بإيقاع معين فلم يجر ذكره الا في نموذجين من شعر

ابن مقبل ثم تطور هذا المعنى الخاص إلى معنى أعم وهو التغني بالشعر عند من جاء بعد ابن مقبل من الشعراء .

SOURCES AND REFERENCES

1. Ibn Khaldun, Al-Muqaddimah (The Introduction), edited and extracted his hadiths and commented on them: Abdullah Muhammad Al-Darwish, Dar Yarub, Damascus - Syria, 2004.
2. Ibn Mandhoor, Lisan al-Arab, Dar Revival of Arab Heritage - Foundation for Arab History, Beirut - Lebanon.1999.

3.Al-Assad, (Nasser Al-Din), Singing women and singing in the pre-Islamic era, Dar Al-Jeel, Beirut - Lebanon, 1988.

4. Al-Asadi,(Bishr bin Abi Khazim),The Collected poems of , presented and explained by Dr. Salah Al-Din Al-Hawari, reviewed by: Dr. Yassin Al-Ayoubi,Dar Al-Hilal Library and publications, Beirut - Lebanon, 1st edition, 1997.

5. Al-Alusi (Mahmoud Shukri), Bulugh al-Arb fi Ma`rifa al-Ahwal al-Arab, explained and corrected ,By Muhammad Bahja Al-Athari, Scientific Books House- Beirut - Lebanon, 2nd edition.

6- Imru' al-Qais, The collected poems of, issued by : Muhammad Abu al-Fadhel Ibrahim, Dar al-Ma'arif - Cairo, 4 th edition Cairo.

7. Bn- Abi Salma (Zuhair), his poetry, edited by: Al-Alam Al-Shantmari, published by: Dr. Muhammad Fakhreddin Qabawa.Publisher : Dar alafaq aljadida, Beirut, 3 rd edition,1980.

8. Bn al-Abras, (Ubaid), his collection of poems, issued and explained by: d. Hussein Nassar, Religious Culture Library, Cairo, 2004.

9. Bn Al-Abd,(Tarfa), explaining his collection of poems , presented and explained by i: Dr. Saadi Al-Dhinawi, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut - Lebanon, d. I, 2007.

10.Bin Zuhair. (Kaab), his collection of poems ,written by: Imam Abi Saeed Al-Hassan bin Al-Hussein Al-Sukkari, presented and put his margins and indexes: Dr. Hanna Nasr Al-Hatti, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut – Lebanon.

11.Bn Qami'ah, (Amro), his collection of poems, issued , explained and commentary on it by: Hassan Kamel Al-Sairafi, League of Arab States - Institute of Arab Manuscripts1965.

12. Bn Kulthum (Amro), his collection of poems , collected ,and explained by: Dr. Emile Badie Yacoub, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut - Lebanon, 1st edition, 1991.

13.Bn Muqbil, (Tamim Bn Abi), his collection of pomes , explained by : Majeed Trad, Dar Al-Jil, Beirut, 1th edition 1998.

14. Al-Hutayah, an explanation of his collection, a narrated and explained by : Ibn Al-Sakit, Dar Al-Fikr Al-Arabi, Beirut – Lebanon, 1st edition ,2001.

15.Roumieh (Wahb), A Journey in the Pre-Islamic Poem, Al-Risala Foundation, Beirut - Lebanon, 3rd edition, 1982.

16. Shalabi, (Saad Ismail), The Technical Origins of Pre-Islamic Poetry: Gharib Library, Cairo, 2nd edition,

17. Al-Dhamin, (Hatem Salih), Ten little publishing poets, Ministry of Higher Education - University of Baghdad, 1990.

١٨-Al-Amiri (Lubaid bin Rabia), explained , issued and presented his collection by: Dr. Ihssan Abbas, Arab Heritage, a series issued by the Ministry of News and Guidance - Kuwait, 1962.

19.Al-Akkad(Abbas Mahmoud), Arabic Culture: Hindawi Foundation, Cairo, 2012.

20. Al-Ghatfani,(Muzrad bin Dhirar), his collection of poems, narrated by Ibn Al-Sakit and others, and explained by Tha'lab, authored by, Khalil Ibrahim Al-Attiyah, presented by: the scholar Sheikh Muhammad Redha Al-Shabibi, printed with assistance of the Ministry of Knowledge, Asaad Press – Baghdad.

21.Al-Qayrawani (Ibn Rasheeq), Al-Umdah in the Beauties of Poetry, its Literature and Criticism,, , adopted and commented on its footnotes: Muhammad Mohiuddin Abd al-Hamid, Dar Al-Tala'i, Cairo – Egypt, 1st edition, 2006.

22. Muhammad, (Fadhil Bunyan) The poetic space of the pre-Islamic poem, the vitality of development and the brilliance of renewal, Dar Dijla Amman - Jordan, 1st edition, 2018.

23.The Marqashin, (The Older Marqassim and the Younger Marqassim), their Collected poems,by: Karin Sader Dar Sader, , Beirut - Lebanon, 1st edition, 1998.

24.Al-Musayyib (Bn Alas), his collection of poems, collected and and issued by: Dr. Abd al-Rahman Muhammad al-Wasifi. Arts Library, 1st Edition, 20003.

25.Al-Hudhali,(Abu Zu'wib), his collection of poems, collected and issued by: Dr. s Ahmed Khalil Al-Shall, Center for Studies And Islamic Research, Port Said - Egypt , 1st edition , 2014.

26. Al-Yashkuri (Suwaid bin Abi Kahil), his collection of poems , collected and issued by: Shaker Al-Ashour, reviewed by : Muhammad Jabbar Al-Moaibed, published with the assistance of Ministry of Information, 1st Edition, 1972

27. Al-Youssef, (Youssef), Articles in Pre-Islamic Poetry, Dar Al-Haqeeq, Beirut - Lebanon, 4th edition 1985.